جامعة تكريت/ كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

المرحلة: الأولى

المادة: التعبير والإنشاء

عنوان المحاضرة: الرسائل

مدرس المادة: د. أسراء شريف فهـد

الرسائل

الإنسان مدني، بل اجتماعي بطبعه، أي لا يُمكِنه العيش إلا في مجتمع صغير يتمثلُ بأفرادِ أُسرَتِهِ ، أو كبيرٍ يتمثَّلُ بأفراد مجتمع بلدِهِ الذي ينتمي إليهِ مِمَّن يلتقيهم في المدرسة أو الجامعةِ أو الدَّائرة أو السُّوق، فيُكَوِّنُ مع عددٍ منهم صداقاتٍ وعلاقاتٍ بحُكمِ اجتماعِهِ معهم واتصالِهِ بِهِم، ثُمَّ تنبَعِثُ عَن هذا الاجتماع، وذلك الاتصال عواطف ومشاعِرُ وأحاسيسُ تُمثِّلُ متناقضات الحياة العجيبة من حُب وبغض وفرح وترحٍ وسُرُورٍ وحُزنٍ وشوقٍ وكُره ، تكُونُ سَبَبًا في توطيد العلاقات وبنائها أو تفكيكها وخَرَابِها، والتعبير عنها وعمَّا يترتَّبُ عليها من استفسار أو سؤال أو تهنئة أو تعزية أو عِتابٍ أو اعتذار أو شكوى أو توجيه أو نُصح أو إرشاد والتعبير عن ذلك كتابةً ، هذهِ الكتابة تُسمَّى «رسالة» .

والرسالة هي نوعٌ مِنَ الإنشاء القائم على التَّعبيرِ بِأُسلُوبٍ من أساليب الكتابة المعروفة.

وكان زعماء العرب وفصحاؤهم كلهم كتاباً ينشئون بملكتهم ولو لم يخطوا بيمينهم فكانوا يحملونها أخبارهم، ويضمنونها ما تتطلبه شؤون حياتهم، ومن يقرأ أخبار الجاهلية في كتب الأدب أو كتب التاريخ يعجب لكثرة رسائلهم آنذاك، ويكاد يلمس أنَّ كتابة الرسائل في الجاهلية أمر مألوف ميسور شائع في شتى الشؤون، وسنكتفي توخيًا للإيجاز – بذكر أمثلة قليلة، ثم لا نثبت نصوصها بل نشير إشارة مقتضية إلى موضوعها.

فمن رسائلهم التي كانوا يحملونها أخبارهم ما كتبه حنظلة بن أبي سفيان إلى أبيه، وكان أبو سفيان (ﷺ) مع العباس بن عبد المطلب (ﷺ) بنجران في اليمن، فكتب حنظلة إليه يخبره بقيام محمد بن عبدالله (ﷺ) يدعو إلى الله (ﷻ).

ومنها كتاب حاطب بن أبي بلتعة(ﷺ) إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله (ﷺ) في أمرهم، وكان كتابه إلى ثلاثة نفر هم: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وعكرمة (ﷺ)، يقول فيه: إن رسول الله (ﷺ) قد أذن في الناس بالغزو، ولا أراه يريد غيركم، وقد أحببت أن يكون لي عندكم يد بكتابي إليكم.

ومنها رسالة الوليد بن الوليد بن المغيرة (ﷺ) إلى أخيه خالد بن الوليد (ﷺ)، وذلك أنّ خالدًا خرج من مكة فرارًا أن يرى رسول الله (ﷺ) وأصحابه (ﷺ) في عمرة القضية، كراهة للإسلام وأهله، فسأل رسول الله (ﷺ) عنه الوليد، وقال: ((لو أتانا لأكرمناه، وما مثله سقط عليه الإسلام في عقله فكتب بذلك الوليد إلى خالد أخيه، فوقع الإسلام في قلب خالد، وكان سبب هجرته.

وقد كانوا يبدون كتبهم هذه بـ (باسمك اللهم)، ويقال إن أمية بن أبي الصلت هو الذي علم أهل مكة ذلك، فجعلوها في أول كتبهم، فكانت قريش تكتب في جاهليتها (باسمك اللهم)، وكان النبي (ﷺ) كذلك، ثم نزلت سورة هود الله (ﷺ)، وفيه﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، فأمر النبي (ﷺ) بأن يكتب في صدر كتبه (بسم الله)، ثم نزلت في سورة الإسراء ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾، فكتب (بسم الله الرحمن) ثم نزلت في سورة النمل :﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، فجعل ذلك في صدر الكتب إلى الساعة.

وكان النبي (ﷺ) وخلفاؤه وأصحابه لا يملون كتبهم على كتابهم بعبارتهم وبعضهم يكتبها بيده

ولما اتسعت موارد الخلافة أصبحت في حاجة إلى إنشاء الدواوين لضبط ذلك، فكان عمر (ﷺ) أول من دون الدواوين.

وكان كتاب الرسائل للخلفاء وعمالهم إما عرباً أو موالي يجيدون العربية، أما كتاب الخراج ونحوه فكانوا من كل إقليم من أهله يكتبون بلغتهم، ولما نبع من العرب من يحسن عملهم حولت هذه الدواوين إلى العربية زمن عبد الملك بن مروان والوليد ابنه، وجرى خلفاء بني أمية في كتابة الرسائل على ما كان عليه الأمر زمن الخلفاء الراشدين.

ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، واستقرت أمورها ازدادت الأعمال وشغل الخلفاء عن أن يتولوا الكتابة بأنفسهم بخاصة عشيرتهم، فعهدوا بها إلى كبار كتابهم، وكان كثير منهم يعرف اللغة الرومية أو الفارسية أو اليونانية أو السريانية، وهي لغات أمم ذات حضارة وعلوم ونظام

ورسوم، ومن هؤلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك، أحد الواضعين لنظام الرسائل، وهو أستاذ عبد الحميد الكاتب الذي آلت إليه زعامة الكتابة أواخر الدولة الأموية على ما سنأتي عليه.

وكانت كتابة الرسائل في أوائل حكم بني العباس جارية على نظام كتابتها في أواخر عهد بني أمية سالكة الطريق التي سلكها عبد الحميد وابن المقفع والقاسم ابن صبيح وعمارة بن حمزة ونظراؤهم، من العناية بجمل عبارتها جزلة بليغة متناسقة الموضوع والأسلوب، وبقيت كذلك بل زادت حسناً وجمالاً ومراعاة لمقتضى الحال إلى أوائل القرن الرابع، ثم أخذت الصناعات اللفظية تغلب عليها تدريجياً بتضاؤل ملكة البلاغة في الكتاب، وتقاصر هممهم عن استيفاء أداتها؛ لتغلب الأعاجم على سلطان الخلفاء في الشرق، وتغلب البربر على شمالي أفريقية والأندلس في الغرب، فلم يعد في الملوك والأمراء من يعنيهم أمر العربية وبلاغتها ومازالت كذلك حتى سقطت الدولة العباسية على أيدي الأعاجم من التتار ، فكان ذلك ابتداء اضمحلال الكتابة واللغة.

وكان أكثر كتاب المشرق في هذا العصر من سلائل فارسية أو سوادية، وقد بلغوا بحذقهم سياسة المُلك ونبوغهم في البلاغة أن ارتقوا عند الخلفاء العباسيين إلى مرتبة الوزارة، وأول كاتب منهم ارتقى إليها هو أبو سلمة الخلال، وأشهر من بلغ نفوذه وسلطانه مبلغاً زاحم فيه الخليفة يحيى بن خالد بن برمك وابناه جعفر والفضل، ثم محمد بن حبيب الزيات في زمن المعتصم والواثق .

وكان كتاب الأندلس والمغرب أكثرهم من سلائل عربية، ومن أشهر كتاب هذا العصر في الشرق: ابن المقفع، وإسماعيل بن صبيح، وعمرو بن مسعدة، وأحمد بن يوسف، والحسن بن وهب، وعلي بن الفرات، وابن مقلة، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وأبو بكر الخوارزمي والبديع، والصابي، والعماد الكاتب، والقاضي الفاضل.

ومن أشهر كتابه في الأندلس ابن شهيد ، وأبو المطرف بن عميرة ، ولسان الدين بن الخطيب.

مميزات الرسالة الجيدة:

ولكي تكُونَ الرِّسالة مؤثرةً، على المُرسل الكاتب أو المُنشئ المُعبِّرِ أَن يَكُونَ جيدَ التَّعبير وذا أُسلُوبٍ يَتَّصِفُ بمميزات، هي:

(١) الوضوح والإبانة، والبعد عن الغموض والإبهام، من غير تكلُّف أو تصنُّع.

(٢) الالتزام بموضوع الرِّسالة، وعدمِ الخُرُوج عن غرضها.

(٣) الإيجاز في العرض، من غير إسهاب ولا إطناب في الكتابة لئلا تكون الرسالة ثقيلةً مُمِلَّة لا تُؤدِّي الغرض الذي كُتِبَت لأجله.

ولا شك في أنَّ لكُلِّ فنّ من فُنُونِ التَّراسُلِ بينَ الأفرادِ أُسلوبَهُ ومعانيه، فأسلُوبُ رسالة العتاب ومعانيه يختلفُ عن أسلوب رسالة الاعتذار ومعانيه، وأسلُوبُ رسالة التهنئة ومعانيها يختلف عن أسلوب التَّعزية ومعانيها، وأسلوب رسالة التبشير والدعوة والإرشاد والتوجيه يختلفُ عن أسلوب التنفير والتهديد والتحذير والإنذار.

ولا بُدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّ الخُطْبَةَ كالرِّسالة، فهما متشاكلتان« في أنَّهما كلام لا يلحقه وزنٌ ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضًا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخُطباء تُشبِه ألفاظ الكُتَّابِ، في السُّهُولةِ والعُذوبة، وكذلك فواصلُ الخُطَبِ مثل فواصل الرسائل، ولا فرق بينهما إلا أنَّ الخُطبة يُشافه بها، والرِّسالة يُكتبُ بِها، والرسالة تُجعلُ خُطبةً، والخُطبةُ تُجعلُ رسالةً، في أيسر كُلفةٍ، ولا يتهيَّأُ مثلُ ذلك في الشعر من سرعة قلبهِ وإحالته إلى الرسائل إلا بتكلفة، وكذلك الرسالة والخطبة لا يُجْعَلانِ شِعرًا إلا بمشقة» .

نماذج من الرسائل

أولاً : رسالة رسول الله (ﷺ) إلى النَّجاشي ملك الحبشة.

بسم اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ

مِن: مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ.

إلى: النَّجاشِي الأصحم ملك الحبشة.

سِلْمٌ أَنْتَ، فإنِّي أحمدُ إلَيْكَ الله الذي لا إلـه إلا هُوَ، الملكُ القُدُّوسُ، السَّلامُ، الْمُؤْمِنُ الْمُهَيمِنُ ، وأَشْهَدُ أَنَّ عيسى بن مريمَ رُوحُ الله وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم البتول الطَّيِّبَةِ الحَصِيْنَة، فَحَمَلَتْ بِعِيْسَى، فخلقَهُ اللهُ مِنْ رُوحِهِ وَنَفْخِهِ، كما خَلَقَ آدَمَ بِيدِهِ ونَفْخِه.

إِنِّي أَدْعُوكَ إِلى اللهِ وحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، والمُوالاةِ لَهُ عَلَى طَاعَتِهِ، وَأَنْ تَتَّبِعَنِي وتُؤْمِنَ بالذي جاءَنِي، فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهُ.

وقد بعثتُ إِلَيْكَ ابنَ عَمِّي جَعْفَرًا ونَفَرًا مَعَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَإِذَا جَاءَكَ فَأَقْرِهِمْ، ودَعِ التَّجَبُّرَ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ إلى الله، فقد بَلَّغْتُ ونَصَحْتُ، فَاقْبَلُوا نُصْحِي.

والسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى.

ثانياً: رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب:

أما بعد، حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم، فإنّ الله (ﷻ) جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً، وإن كانوا في الحقيقة سواء، وصرفهم في صنوف الصناعات، وضروب المحاولات، إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات، أهل الأدب والمروءات، والعلم والرزانة، بكم ينتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم، لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون، فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم.

وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم.

تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده.